أو أجساداً هي نعوش تحتوي موتى، لا تعود الساعة نعشاً؛ فقد خرج العكاز من إساره، وصارت دقات الزمن الجديد بديلاً له، خطوات تقرع في فضاء الوطن والعالم، ولا يعود السرير نعشاً، فقد ذهب زمن الاستلقاء العاجز قبالة الساعة ـ النعش لعدّ دقات زمن يموت، وذهب زكريا الذي جعل السرير نعشاً دفنت فيه أماني مريم، ذهب الى موت حقيقي لا يشبه ذاك الذي كانت تراه مريم في إغراقه في النوم. لا يعود شيء في البيت يحمل مدلوله القديم، ولا يعود البيت قبراً، لأن مريم نفسها لم تعد هي المستكينة العاجزة التي يصبغ موتها في الحياة رؤيتها لكل شيء.

إن أشياء البيت، والبيت نفسه، والمخيم، التي شكّلت معادلات موضوعية، فنية، للواقع، وتضافرت جميعاً، مع الصحراء، وأبطال الرواية لتصوغ الرواية كمعادل فني كلي للواقع الفلسطيني في المنفى، في تلك الحقبة من الزمن، وذلك عبر تحويل الواقعي الى المتخيّل، والايحاء الدائم بامكانية انبثاق واقع مغاير، والوصول في الرواية ذاتها الى الخطوة الاولى نحو انبثاق ذلك الواقع، نقول: إن البيت وأشياءه والمخيم، في ضوء ما سبق، لا يمكن لها ان تواصل الاحتفاظ بمدلولاتها القديمة، ذلك لأن تحول الرؤية للعالم يحوّل مدلولات الاشياء ويصبغها بصبغته، ومع حضور الوعي الممكن يصير الوعي القائم ماضياً، وعلى هذا النحو يصير ما أنجزته رواية «ما تبقى لكم» وعياً قائماً يبحث عن تحولاته، فيعثر على انفجاراتها في «أم سعد»، حيث تصير خطوات حامد ومريم، وقناعات سعيد س. الجديدة في «عائد الى حيفا» مداً جماهيرياً، ملحمياً، يحتضن وعياً قائماً يبحث عن وعيه الممكن، بثقة واقتدار، لأنه ناهض على وعي يتحول مع وقع الخطوات. وفي المسافة بين الوعي القائم والوعي الممكن تعثر أماكن المنفى خارج الوطن على تحولاتها الدلالية.

ولئن وقفنا عند ما قدمته «ما تبقى لكم» من تحولات لدلالة المخيم والبيت، كأماكن للمنفى داخل الوطن، ومن نبوءات تشي بانبثاق زمن الثورة والفعل من هذه الاماكن ذاتها، فإن روايتي «رجال في الشمس» و«أم سعد» تقدمان تجليات وتمظهرات للحيز الثاني في مجال أماكن المنفى؛ وهو حيّز المنفى خارج الوطن، وتصوغ «أم سعد» تحولات الرؤية للمكان مع تحولات الرؤية للعالم، عبر مخاضات عبرها الوعي الفلسطيني، وحاولت الروايتان، التعبير عنها فنياً.

الحيز الثاني: أماكن المنفى خارج الوطن

لا تنشغل رواية «رجال في الشمس» بتقديم مكثّف لأماكن المنفى كأماكن إقامة خارج الوطن، وذلك لأن أحداثها تقع في المجال المكاني الذي يفصل المنفى (هنا) عن المنفى (هناك) أي انها تقع في منطقة الحد، في الصحراء التي تفصل أماكن المنفى هنا، عن الكويت كمنفى هناك؛ أي صحراوات كثيرة كصحراوات الاردن والعراق والكويت. وأحداث رجال في الشمس القائمة على منطق الرحلة، وعلى اختراق أماكن الحد المحرّمة ـ كما هو حال حامد في «ما تبقى لكم» ـ تتكثّف في صحراء الكويت، وفي الاماكن الحدودية الحدّية ـ التي يتوجب على أبطال الرواية اختراقها، وهي لا تستدعي حضور المخيمات أو أماكن الاقامة في المنفى ـ هنا الا في سياق رسم خلفية الاحداث وتقديم ماضي الشخصيات والكشف عن الطموحات التي اتخذها كل منهم دافعاً لرحلته، وفي هذا السياق نعثر على إشارات، طفيفة غير أنها دالة، عن أماكن اقامة أبطال الرواية في المنفى، وهي الاماكن التي انطلقوا منها نحو منفى المنفى.

غرفة ما في مكان ما في المنفى

لا تحدّد «رجال في الشمس» المكان الذي انتقل اليه أبو قيس بعد اقتلاعه من الوطن، من